خطبة صلاة الجمعة 20/12/2013 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بشرى سارة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:63-64].

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:17-18].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «**بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا**» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» [رواه أبو داود والترمذي].

وقال النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ**» [رواه أحمد].

ويقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «بَشِّرُوا النَّاسَ» [رواه الطبراني].

أيها الإخوة:

في زحمة الأزمة، وفي خِضَمِّ الشَّدائد، يحتاج المرء إلى بشارةٍ تَسُرُّ قلبه بعد حُزْنٍ، وتشرح صدره بعد ضيقٍ، ذهبت أبحث في القرآن الكريم عن البِشائر، أربط بها على قلب كلِّ جريحٍ، وأشدُّ بها أَزْرَ كلِّ مصابٍ، فكانت هذه الخطبة بعنوان:

(بُشرى سارة)

قال ابن فارس في مقاييس اللُّغة: (الباء والشِّين والرَّاء أصلٌ واحدٌ، يُفيد ظهور الشَّيء مع حُسْنٍ وجمال، فالبَشَرة ظاهِرُ جِلْد الإنسان، وسُمِّيَ البَشَرُ بَشَراً لظُهورِهم بِحُسْنٍ وجمالٍ، والبَشِير الحَسَنُ الوَجْه، والبَشَارة الجَمَال.

ويقال: بَشَّرْتُ فُلاَناً أُبَشِّرُهُ تَبشيراً، وذلك يكون بالخَيْر، وربَّما حُمِل عليه غيره من الشَّرِّ، جنساً مِن التَّبكيت).

جاءت البشارة وما يرتبط بها من حروف في القرآن الكريم في أربعٍ وثمانين موضعاً، ستٌ وسبعون منها في حمل أخبار الخير لأهل الصَّلاح والبرِّ والمعروف.

قال الفيروزآبادي في بصائر ذوي التَّمييز: (البِشارة الخَبَر السَّارُّ، ويقال لها: البُشْرى أَيضاً، وبَشَرته، وبشَّرته: أَخبرته بِسارّ بَسَط بَشَرةَ وجهه، وذلك أَنَّ النَّفس إذا سُرَّت انتشر الدَّم فيها انتشارَ الماءِ في الشَّجر، فصارت بَشَرَةُ من جاءته البِشَارة نَضِرَةً.

واستبشر: إذا وجد ما يسرُّه من الفرح، والبشير المبشِّر.

والبِشَارة وردت في القرآن على اثني عشر وجهاً، لاثني عشر قوماً باثنتي عشرة كرامةً.

الأَوَّل: بِشارة أَرباب الإنابة بالهداية: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر:17].

الثَّاني: بِشارة المخْبتين والمخلصين بالحفظ والرِّعاية: ﴿وَبَشِرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:34].

الثَّالث: بِشارة المستقيمين بثبات الولاية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:30].

الرَّابع: بِشارة المتَّقين بالفوز والحِماية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [يونس:63-64].

الخامس: بِشارة الخائفين بالمغفرة، والوقاية: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:11].

السَّادس: بِشارة المجاهدين بالرِّضا والعناية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة:20-21].

السَّابع: بِشارة العاصين بالرَّحمة والكفاية: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:49].

الثَّامن: بِشارة المطيعين بالجنَّة والسَّعادة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة:25].

التَّاسع: بِشارة المؤمنين بالعطاءِ والشَّفاعة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:2].

العاشر: بشارة المنكِرين بالعذاب والعقوبة: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:138] وهذه استعارةٌ.

الحادي عشر: بِشارة الصَّابرين بالصَّلوات والرَّحمة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157].

الثَّاني عشر: بِشارة العارفين باللِّقاءِ والرُّؤية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:47]).

أيها الإخوة:

في شِدَّة البرد والرِّيح والجوع وتمالئ الأعداء على المدينة المنوَّرة وأهلها، كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يبشِّر أصحابه: ستفتح لكم الشَّام ستفتح لكم اليمن ستفتح لكم فارس.

يومها لم يكن أحدٌ يتوقَّع أن ينجو ممَّا هو فيه.

في عمرٍ جاوز الخامسة والثَّمانين بَشَّر الله تعالى سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام بالذُّريَّة: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:101]، وفي سِنٍّ قاربت التِّسعين ومِن زوجةٍ طاعنةٍ عقيمٍ بَشَّر الله تعالى زكريا عليه السَّلام بيحيى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ [مريم:7].

يومها لم يكن أحدٌ يتوقَّع لهما الذُّريَّة، حتَّى قال سيِّدنا زكريا نفسه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:8-9].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:40].

ومِن أمٍّ بلا أبٍ يُبَشِّر الله تعالى السَّيِّدة مريم بعيسى عليهما السَّلام: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:45].

وبعد أربعين سنةٍ مِن فقد ابنه يأتي البشير حاملاً قميص يوسف ليعقوب عليهما السَّلام: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:96]، كلُّ هذه البِشارات حتَّى لا ييأس رجلٌ مِن روح الله، ولا يَقْنط امرؤٌ مِن فَرَجِ الله مادام مع الحقِّ وعلى الحقِّ.

وَرَدَ البَشِيرُ مُبَشِّرًا بقُدُومِهِ ... فمُلِئْتُ من قَوْل البَشِير سُرُورا

فكَأَنَّنِي يَعْقُوبُ مِن فَرَحِي بِهِ ... إِذْ عادَ من شَمِّ القَمِيصِ بَصِيرا

واللهِ لَوْ قَنع البَشِيرُ بمُهْجَتِي ... أَعْطَيْتُه ورَأَيْتُ ذاك يَسِيرا

لَوْ قالَ هَبْ لِي ناظِرَيْكَ لَقُلْتُهَا ... خُذْ ناظِرَيَّ فما سَأَلْتَ كَثِيرَا

إنَّ أعظم البُشرى عندما يقال للواحد فينا غداً إذا الْتَقَّتِ السَّاق بالسَّاقِ: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:30].

روى الدَّارمي بإسناده: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (مَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَلْيُبْشِرْ) أي: فليَفْرَح ولْيُسَرّ لأنَّ محبَّة القرآن دليلٌ على مَحْضِ الإيمان، مِن بَشَر يبْشَر بالفتح.

وروى أبو نعيم: عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: (أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ: يَا دَاوُد بَشِّرِ الْمُذْنِبِينَ وَأَنْذِرِ الصِّدِّيقِينَ، فَكَأَنَّهُ عَجِبَ! فَقَالَ: رَبِّ أُبَشِّرُ الْمُذْنِبِينَ وَأُنْذِرُ الصِّدِّيقِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، بَشِّرِ الْمُذْنِبِينَ أَن لَا يتَعَاظَمُنِي ذَنْبٌ أَغْفِره لَهُم، وَأَنْذِرِ الصِّدِّيقِينَ أَنْ لَا يُعْجَبُوا بِأَعْمَالِهِمْ، فَإِنِّي لَا أَضَعُ عَدْلِي وَإِحْسَانِي عَلَى عَبْدٍ إِلَّا هَلَكَ).

والحمد لله رب العالمين